من الإسكندرية إلى مونستر والعكس!
بقلم: فايزة حربي-بمان

عدت الي مونستر في بداية يوليو بعد انقطاع دام قرابة الأربعة أشهر. كانت تلك المرة الاولي التي ابتعد فيها وانا غير متأكدة من العودة مرة آخري. من كان يستطيع تكهن هذا! وباء حل على العالم أجمع وألقى بظلاله على كل بقاع الارض. تعطلت الطائرات والجامعات وقاعات السينما والقطارات وكأن العالم أجمع قد أتفق على أن يبطئ من سرعته كي نفهم ما الذي حدث! كنت مثل الكثيرون الخائفون الذين انحصرت كل أهتماهم بأسرتهم. علي عجل حجزت تذكرة عودة بسعر خيالي وعدت على متن آخر طائرة تحلق فوق سماء دوسلدورف الي القاهرة، يملاني الخوف من المرض المجهول الذي ينتقل عبر التلامس. ارتديت بدل القناع اثنان وصرت أستبدل كل ساعتين القفازات الطبية التي كنت أرتديها وأطهر يدي بسائل مطهر ليدين والأسطح حتى وصلت أخيرا بعد عدة ساعات من السفر إلى الإسكندرية.

كنت أود أن أضم أمي حين رأيتها، ولكن خوفي من أن أكون أحمل المرض الجديد منعني حتى من مصافحتها. ذهبت إلى الحمام الصغير علي الجانب الأيمن من مدخل الشقة وبدلت جميع ملابسي ثم وضعتها في كيس بلاستيكي وأحكمت أغلاق الكيس، ثم اغتسلت على عجل لا أطيق انتظار تلك الدقائق التي استغرقتها. فأنا كل ما أريده هو أن أضم أمي، أريد أن أقبل يد أمي، ولكن خوفي كان هو المسيطر على كل تفكيري. خرجت من الحمام وهي بهدوئها وابتسامتها الحانية تنظر إليّ وهي تقف على مسافة تجاوزت المترين. كانت هزيلة جدا يبدو أنها خسرت أكثر من ربع وزنها وتحول لون بشرتها الصافية البيضاء المشربة بالحمرة إلى بشرة باهتة صفراء. كانت ضربة ثقيلة عليها حينما توفيت والدتها أثناء وجودها في المشفى بعد يومين من أجرائها عملية جراحية. كيف صدمت يا أمي! كيف تلقيت الخبر وأنت على فراش المرض! حين علمت الخبر وددت أن أطير إليك كي أخفف عنك، ولكني كنت أنتظر موعد تجديد الإقامة هنا في ألمانيا. وأنا ها هنا أقف أمامك لا أستطيع حتى مصافحتك، خوفاً أن أنقل لك مرضاً جديداً لا أدري إذا كنت أحمله أم لا.

ظللنا طيلة الليل نتحدث من بعيد وخيل الي للحظات أني أحدثها هاتفياً وكأن هناك حائط شفاف يدعي كورونا يقف بيننا. بعد يومان استطعت أن ألقي نفسي في أحضانك. أنا هنا يا أمي طفلتك الصاخبة بين يديك. بكيت وأنت تخبريني عن أمك وبكيت معك. كنا نحبها، لقد كان الجميع يحبها. كانت ذكية على الرغم من أنها لم تذهب يوماً للمدرسة، كانت محبة للحياة بشكل كان يدهشنا. أناقتها وحرصها على تكحيل عيناها السمرتان كان يذهلنا. عاشت طويلاً حتى ظننا أنها لن تفارقنا كنا نكبر وتكبر معانا. كانت في البيت كأهم جدرانه لقد كانت تذكر كل أسماء أبناء أحفادها وتلاعبهم وتدعو لهم وكانت تنتظر زواجي بفارغ الصبر. كانت تضاحكني قائلة إنها لن تفارق الحياة قبل أن تقابل زوجي! كنت أداعبها قائلة إذا سوف تنتظرين طويلاً! ووفت بوعدها وانتظرت حتى اتمت عامها التسعين أم أنا لم أوف بوعدي ولم أتزوج. جمعت حالة الحداد بيننا أكثر وأكثر فكنا نبكيها سوياً ثم بعدها نتبادل القصص الطريفة عن جدتي، نضحك ملئ فمنا ثم تذرف مقلتنا الدموع على رحيلها.

في البداية كنت سعيدة أني أمرض أمي، وأصنع لها الطعام وأتابع معها تحسن حالتها البطيء. كنت سعيدة بوجودي معها لقد كانت حالتها في تحسن حتى أصبحت بعد أقل من ثلاث شهور في حال أفضل وبدأت تعاود أنشطتها اليومية بشكل

طبيعي تماما. وبعد الشهر الرابع من وجودي بالإسكندرية وشعرت بأن تلك الشهور مرت كعام أو عامان لقد كانت بالنسبة لي الإسكندرية ليست الإسكندرية التي أعرفها. كانت جدران الشقة هي كل ما يمكن أن أراه وشرفة المنزل التي تطل على شارع المأمون في المساء كل ما يمكنني فعله هو الخروج إلى الشرفة ومتابعة اسراب الطيور التي تحلق فوق سماء المدينة. فقد طبقت الحكومة المصرية حظر تجوال صارم يبدأ في السابعة مساءً حتى السادسة صباحاً وصرت أبحث عن هواية جديدة تنقذني من الملل وكان الكروشيه هو الحل. شاهدت عدة مقاطع على الأنترنت حتى تحمست جدا لفكرة وشعرت أن بإمكاني فعل ذلك. بعد محاولات عدة أقنعت والدتي بالخروج من المنزل في مشوار قصير إلي المنشية.

وما أن وصلت هناك، حتى وقفت لحظات أتأمل أمواج البحر والكورنيش الذي بدا خاليا من مرتدين لا عشاق يجلسون متقاربون ولا طلبة فروا من يومهم الدراسي الطويل إلى البحر ولا عجائز يجلسون منفردون أمام البحر. حتى القطط بدت وحيدة بدون هؤلاء الصيادون الذين يقضون ساعاتهم علي أمل اصطياد سمكة والقطط تجلس بجوارهم تحمل الأمل نفسه. وأنا هنا على الكورنيش افتقد هذا الزحام المحبب علي البحر. علي مرمي بصري يساراً كانت تقف القلعة وحدها وبجوارها تتأرجح كل سفن الصيادين الصغيرة وأشعة الشمس تنعكس على سطح البحر فتبدو من بعيد تلك السفن الصغيرة وكأنها عقد أنفرط حباته واستقرت على سطح الماء وتركت نفسها للريح الذي يحركها ببطء. بصعوبة تركت ذلك المشهد البديع الذي لا أزهده ودلفت من شارع جانبي بجوار محكمة الحقانية. أيقظني صوت جرس الترام فتوقفت كي يمر ثعبان المدينة الأصفر العجوز واستأنفت المشي حتى شارع فرنسا ثم اتجهت يسارا إلى زنقة الستات ثم إلى محل علام لبيع مستلزمات الخياطة والتريكو.

كتلميذة متلعثمة في أول يوم دراسي في مدرسة جديدة. رحت أجول بنظري بالمحل الصغير المكتظ بجميع مستلزمات الخياطة، الكروشيه والتريكو. وعلى الجانب الأيسر من المحل يجلس الحاج محمود بوجهه الودود وابتسامته العذبة خلف مكتب خشبي الذي تآكلت أطرافه بفعل الزمن. بعد أن انتهيت من المشاهدة سألت البائعة التي تبدو متمرسة جدا وذات خبرة في مجال التريكو عن رقم الابرة المناسبة لصنع مفرش سرير بغرزة الجدة. ثم أخرجت هاتفي وعرضت لها صورة من المفرش الذي أود حياكته. في ثوان معدودة كانت كل المستلزمات الخاصة بصنع مفرش الكروشيه موجودة: أبر الكروشيه بألوانها الزاهية ومجموعة لا تقل من ثمان بكرات من الصوف المصري من انتاج غزل المحلة بوزن ٢٥٠ جرام ثم أعطتني عدة خيارات لألوان البكرات الصوفية. ثم كمدرب رياضي محترف قامت بشرح لي عمليا كيف يمكن البدء في الغرزة وصنعت بمنتهي الخفة مربعا كاملا مثاليا وبديعاً في ألوانه. ثم نظرت لي بابتسامة نصر كأنها لتوها انتهت من عرض رياضي رشيق. كدت أصيح من الفرح. إلا أن قدرتي على التعبير عن مشاعري بصراحة تقل كلما تقدمت في العمر! كنت فيما مضى صاخبة جدا لكن من حولي نصحوني ان من باب الأدب الا يعلو صوتي لان هذا نوع من قلة الأدب! علي أي حال اجتهدت حتى أخفيت مشاعر الأثارة التي شعرت بها وبصوت مهذب شكرتها ودفعت لها المبلغ المطلوب وعدت للمنزل.

كانت فرحتي بكرات الصوف الملونة وأبر الكروشيه ذات الأحجام المختلفة لا تختلف عن إحساسي حينما كنت في العاشرة من عمري أحمل بين يدي خمس أعداد لمجلة فلاش للجيب مرة واحدة. ما زلت اذكر تلك الأيام حينما كنت أستقل الترام المتجه إلى سانت كاترين ثم أقوم بعد المحطات الثلاثة التي تتلو محطة الرصافة بالترتيب: محطة بوالينو، محطة منشأ ثم أخيرا يظهر مبني محطة مصر القديم على اليمين وحينها أعلم ان من الواجب ان اخرج هنا. هكذا علمتني أمي أن " أحفظ' " الشوارع والمحطات بواجهات المحلات. قالي لي أمي حينما تري المحطة على اليمين والعصافيري على اليسار هنا يجب أن تتركي الترام وإلا طار بك الترام إلى المنشية وحينها ستضلين طريق البيت إلى الأبد. كنت أرتعد من تلك الفكرة، ألا أعود إلى المنزل. فلربما قابلي أبو رجل مسلوخة في المنشية. أو خطفني أحد الشحاذون وأجبرني على الشحاذة معه في شوارع المنشية. كانت المنشية تبدو مكان مخيف وغير أمن. بعد ذلك كنت أمشي بجوار المحطة حتى أري المسرح الروماني ثم أتجه يسار حتى أرى باعه الكتب الجالسين في الطريق. من هنا كنت اترك نفسي أتوه بين أغلفة الكتب، بين صفحات

المجلات، بين كتب الدين القديمة المسلسلة. بين الكتب الطبية والقواميس اللغات المتعددة. في الحقيقة لم أكن أهتم بأي شيء سوى قصص الأطفال.

ما أن أري كشك به كتب الأطفال حتى أتساءل: عمو عندك روايات رجل المستحيل وفلاش؟ وما أن يقول نعم حتى تعلو الابتسامة وجهي. ثم أعطيه الأعداد التي قرأتها وأخذ الأعداد جديدة وأدفع الفرق الذي لا يتعدى ربع جنيه للعدد الواحد. ثم أسرع بعدها في طريقي للعودة إلى المنزل وأتملل أمام محطة الترام حتى تظهر الترام رقم ٤ أو ٦. كلما رأيت الترام من بعيد تنتابني الغبطة وما أن تظهر اللوحة المعدنية برقم مغاير لرقم ٤ أو ٦ حتى أصاب بخيبة أمل. وأخيراً يظهر الترام وما أن أجلس على الكرسي الأخضر داخل الترام حتى أبدأ في قراءة مجلة الجيب فلاش. في بعض الأحيان كنت انتهي من قراءة عدد كامل فقط في طريق العودة. فأخرج من الترام وأعيد المشوار ذاته حتى أحصل على عدد جديد من نفس البائع الذي يبتسم من عودتي السريعة. لكن هذا يعني أني سوف أستغرق وقت مضاعف حتى أصل إلى البيت! وما أن أدلف من باب الشقة حتى تنهرن أمي على التأخير. كنت أستمع لها دون رد. لا أريد أن أفتعل مشكلة جديدة ويتم حرماني من متعتى الأسبوعية في الذهاب إلى سوق الكتب المستعملة في النبي دانيال. وحينما انفرد بنفسي في الغرفة حتى أبدأ في القراءة وأحلق بعيدة عن غرفتي إلى عالم أخر يعيش به نور وزوجته سلوى وفريقهم، أنهم في مهمة سريه يحاربون من أجل إنقاذ الكوكب. كنت أتابع بشغف كل أحداث الرواية. كنت أرفض أن ألبى دعوة أمي للغداء حتى لا أترك الرواية التي بين يدي. وما أن أنتهى من القراءة كانت تنتابني موجات حزن لأني تعلقت كثيراً بالشخصيات في الرواية وأشعر أنهم تركوني وحدي. ثم أنظر إلى صورة الكاتب في مؤخرة الكتاب وهو يرتدى بدلة ولديه شارب يشبه شارب أبى ويبتسم. كدت أساله لماذا لا يأخذني مع نور وفريقه. ولكي أسري على نفسي كنت أقرا مجلة فلاش واشعر بالسعادة لأني مغامرات ميدو وسوزي وعلام كانت مضحكة جدا. اما البحار غريق ومساعده فكانوا شخصياتي المفضلة على الأطلاق!

اكتشفت بعد أن أتممت الثلاثين أنى أحب الكروشيه. كنت قد شاهدت عدة مقاطع على الأنترنت للمبتدئين، وراجعت في عقلي كل ما قالته تلك السيدة في محل المنشية. ثم أخيراً هممت بصنع المربع الأول الذي بدا سيئ بكل مواصفات مقاييس الكروشيه! لم أياس ثم صنعت مربع أخر. لم يكن أفضل من سابقه بكثير حيث إنه ظهر متعرجا بشكل لا يصدق كما ان الغرز ظهرت تارة ضيقة وتارة متسعة أكثر مما يجب. بعد حوالي أسبوع استطعت أن أصنع مربع يبدو متناسق من حيث الألوان والمسافة بين الغرز. أصبحت الساعات تمضي كالدقائق والأسابيع كالأيام. وبعد حوالي ٥ أسابيع أصبح لدي مفرش كامل للسرير. يا لسعادتي!

وهكذا بعد عدة أشهر أصبح الكورونا وباء عالميا تتعامل معه كل دولة بطريقتها وما يتناسب مع اقتصادها. وتراجع شيءً فشيء الجزع الذي أصابنا جميعاً. رتبت لعودتي مرة أخري إلى ألمانيا ومكثت أسبوعي الأول في شقة صديقتي المقربة ثم بدأت في البحث عن مكان مستقل لي. ولكن لم أنجح في العثور على شقة أبدأ وظللت أتنقل بين شقق ومنازل الأصدقاء وصار شغلي الشاغل هو إيجاد شقة أو غرفة خاصة بي وظللت أسال الأصدقاء والأقارب والزملاء حتى أني بدأت أتواصل مع أشخاص قد أكون قابلتهما مرة واحدة وتبادلنا فقط ارقام الهاتف من باب الأدب. كان من ضمن هؤلاء الأشخاص، كاتب صحفي من الدقهلية. كان من أحد أعضاء جماعة الأخوان المسلمين الفعالين في المجال السياسي والناشطين في مجال الدعوة في إحدى محافظات الدلتا. وحدث تحول جذري في حياته إبان أحداث رابعة العدوية والمظاهرات الحاشدة التي تلتها ثم عزل الرئيس محمد مرسي عن الحكم وغيرها من التداعيات التي أدت إلى تغيرات جذرية في المشهد السياسي المصري.

يقول لي الزميل الذي عرفني بهذا الصحفي أنه صدم صدمة كبير في القيادات الإخوانية وعلى أثر تلك الصدمة أرتد عن الدين الإسلامي وأصبح من داعية لذلك الدين إلي داعية ضد الدين الإسلامي. لم أقابل خالد حينما كان بلحية وجلباب وإنما قابلته في حانة يمسك بيد الجعة وفي اليد الأخرى يدخن التبغ موود الألماني ويسألني بنبرة أستهزئ لماذا ما زلت متمسكة

بهذا الدين؟ ثم بدء يشكك في رواة الحديث وصحيح البخاري ويحاول بشتى الطرق إبهاري بمعلوماته المغايرة عن المعلومات السائدة حول الدين الإسلامي. لم أنبهر! ولكن أشفقت عليه بداخلي جدا. كان مظهر خالد لا يوحى بأن تلك الحانة مكان يتردد عليه. ظهر وكأنه كأحد المخبرين الذين يرتدون ملابس تنكرية حتى يستطيعوا أن يتموا مهمتهم بدون أي لفت للانتباه. كانت البدلة التي يرتديها وذقنه الخفيفة المحلوقة والسيجارة في يده توحى بأنهم ليست خاصته. وانما ملابس تنكرية! فهو هنا من أجل مهمة دعوية، ألا وهي إثناء الناس عن شرب الخمر!! وها هو يجتهد الان أن يثبت لي العكس: لقد تبرأت من هذا الدين! ولكن كما نقول في مصر "يموت الزمار وصوابعه بتلعب". فلقد كان له نفس نمط الداعية الإخواني الذي يجمع لك القصص المؤثرة حتى يكسب ودك وتعاطفك وبالتالي تعود إلى الطريق المستقيم وتذهب معه إلى المسجد لصلاة المغرب ثم حضور درس ديني حتى تقام الصلاة لصلاة العشاء. وقتها يشعر خالد أنه ضم للجماعة أخ جديد!

صحيح أنه خلع عباءة الدين الإسلامي، ولكن الآن هو نفسه الداعية الملحد الذي يسرد لك القصص والأمثال حتى تترك دينك وتعيش بدون دين ولكي تتمتع بحياتك وكأن الدين يمنعك من ذلك! أيقنت أنى لست بحاجة إلى تخيل حسن قبل وبعد. لأن هو لم يتغير! كلاهما بالنسبة لي نفس الشخص مع اختلاف محتوي الحديث. وصدقت كلام صديقه انه مر بصدمة نفسية كبيرة ويحتاج ربما سنوات حتى يستطيع هضم ما حدث ثم محاولة التعايش معه. لقد كانت أمسية ظريفة علي أي حال. تبادلنا أرقام الهاتف بما أنه جديد في ألمانيا وقد يحتاج أي منا مساعدة أو حتى قد نتبادل الزيارات علق عصام صديقي مازحا "خيانة" لقد كان يريد عصام مد زيارته لقضاء وقت أطول في ألمانيا، ولكنه مرتبط بعمله في دبي ولابد من عودته. بعد عدة أسابيع ربما تبادلت مع خالد الرسائل النصية مرة أو مرتان ثم أنقطع تواصلنا الهش.

لكن أثناء بحثي عن شقة صغيرة أو غرفة في شقة مشتركة حاولت الاتصال بكل معارفي وكان حسن أحد تلك المعارف. كنت خجولة أن أطلب من المكالمة الأولي مساعدته، ولكني تشجعت حينما سألني عن أحوالي إبان عودتي من مصر. أستمع إليّ مبتسم ثم ألقي عدة تعليقات سلبية على مصر و"الشعب المتدين بطبعه" ولكني لم أخذ تعليقاته على محمل جد لان في أعماقي أسامحه، فقد كنت أشعر بجرحه الذي لم يشف بعد. لذلك لا أعلق إلا بضحكة مجاملة هادئة، مسكين! آنه محروم من زيارة أهله ورؤية أصدقائه لان أسمه على قوائم الانتظار. هذا يعني في حالة عودته إلى مصر سوف يتم القبض عليه في المطار. لقد كانت كتابات خالد الصحفية قبل حادث فض ميدان رابعة العدوية تحمل الطابع السياسي الديني الإصلاحي، ولكن بعد تلك الأحداث سافر إلى اليونان وهناك بدء يهاجم الدولة والسياسة المصرية بشكل مسيء جداً. أنا لا أعرف لماذا لا أتذكر ضخامة هيئته وكثافة لحيته وصوته الحانق على مصر وأهلها. وإنما اتذكر عيناه العسليتان الرائقتان وخصلات شعره الأسود التي تنسدل على جبهته. في نظري كان خالد طفل غاضب وذكرني سلوكه السياسي العنيف الغاضب بالمثل الإفريقي القائل "الطفل الذي لا تحتضنه قريته، سوف يحرق القرية كلها كي يشعر بدفئها" هذا الطفل كان هو. يكتب في جرائد لديها أجندة معادية لمصر وبالطبع تتركه له مساحة كي ينفث غضبه ضد دولته الأم ودينه. عرفت من عصام بعد ذلك أن خالد أستقر به الحال في ألمانيا بعد أن قدم على طلب لجوء سياسي بعد إقامة قصيرة في اليونان. تذكرت كل هذا أثناء استماعي لتعليقاته الحانقة على مصر بشكل ساخر عبر الهاتف. وترددت في فكرتي بطلب المساعدة منه، ولكن ماذا لو لم أخبره بنيتي من المكالمة فلربما ظن شيء أخر لا أتحمله. فبعض الرجال العرب هنا مهووسون بصيد الفتيات الوحيدات في بلاد الغرب. يظنون أننا خراف بلا راعي ويمكن اصطيادنا بكل سهولة لمجرد أننا أتخذنا قرار السفر لدراسة أو للعمل في أوروبا.

سمعت العديد من القصص من الفتيات العربيات هنا عن قبح بعض الرجال العرب هنا. أنا لا أعمم، ولكن هناك نسبة لا يمكن التغافل عنها تحمل تلك الصفات حتى أنا شخصياً تعرضت أكثر من مرة لمضايقات من شباب سوريون، وعراقيون، ومغاربة، ولبنانيون. تكون الأمور في البداية على ما يرام حتى يأتي السؤال المعهود: انتِ هنا بمفردك أم مع زوجك؟ وحينما

أقول أهنا بمفردي تتسع الابتسامة على وجه السائل لا إرادياً وتلمع عينه، كعيون بطل منتصر يعلم أن ضحية على وشك أن تحتضر. لقد تدربت ألا أظهر أي انطباع على وجهي أثناء سماعي لرجلان يتحدثان العربية سوياً في القطار آو في الحافلات آو في أي مكان. أن لهؤلاء الرجال تكنيك خاص بهم. فحينما يشعر أحدهم أن تلك السيدة قد تكون عربية، ينظر بعضهم إلى بعض ويبدئ أحدهم في إلقاء النكات ثم متابعة تعابير وجه السيدة فإذا ابتسمت معني ذلك آن هناك مجال للتحدث معها آو حينما يكون رجلاً بمفرده يتحدث في الهاتف مع سيدة ثم يتغزل بها ويراقب الرجل من حوله تعبيرات وجه السيدات التي يشك آنهن قد يكن عربيات. تعلمت هذا كله بالمراقبة. لقد كنت أخاف الرجال العرب بشكل مرعب. وربما يعود ذلك إلى حادثتين تعرضت لهما في عامي الأول بألمانيا. الأولي حادثة في صيف ٢٠١٧. حيث بدأت العمل في مطعم وفي هذا المطعم كنت أذهب في المساء للتنظيف وقد يحدث أن ألتقي أحد العاملين في المطعم الذي يعمل علي الكاشير ويحسب المال والفواتير ومال إلى ذلك ثم يترك لي مفتاح المطعم وينصرف. بينما أنا في مطبخ المطعم أقوم بالتنظيف وحينما أنتهي أدلف إلى قاعة الطعام فأرتب الطاولات والمقاعد وأكنس الأرضية ثم أمسح الوجهات الزجاجية للمطعم وأترك المفتاح في صندوق البريد الخاص بالمطعم وبالتالي في الظهيرة يأتي زميل أخر لالتقاط المفاتيح وهكذا دواليك.

في ليلة كان هناك زميل عمل سوري. قد أخبرني زملائي عنه لكننا لم نلتق أبدآ لأني اعمل يومان فقط في الأسبوع ثم حدث ذات يوم والتقينا شعرنا بألفة لأننا نتحدث اللغة نفسها ثم أثني ذلك الزميل على خفة ظل المصريين وعن عشقه للأفلام العربية وخاصة أفلام عادل أمام ثم ردد جملة شهيرة لعادل أمام في فيلم "سلام يا صاحبي "وضحكنا سوياً. وصدق أو لا تصدق كان أول عربي قابلته منذ انتقلت إلى تلك المدينة لذلك شعرت بشيء من الألفة حينما كنا نتحدث معاً. بعد شهر صادف مرة أخرى أن نعمل سوياً. وعلي غير العادة وجدته يقف على باب المطبخ. أخبرته إذا كان كل شيء على ما يرام. أخبرني بآنه انتهي من عمله، ولكنه سوف ينتظرني بالخارج حينما أفرغ من عملي. سار الشك في عروقي حينما سألته عن السبب! قال إنه أشتري زجاجة نبيذة غالية وهو يريد أن يقاسمني إياها. أخبرته بأني لا أحتسي الخمر وكانت تلك عبارة أريد بها أن أنهي الحديث. قلت له من الأفضل الأن أن تتركني أكمل العمل. وجدته ينظر لي بعيون زجاجية ويقترب تاركاً خلفة أثار أقدامه المتسخة على الأرض المبتلة التي كنت أمسحها. تمنيت أن تنزلق قدماه قبل أن يصل ويقف أمامي. كان مع كل خطوة يتقدم فيها نحوي، تتسارع دقات قلبي أكثر وأكثر وكأن كل نواقيس الكنائس الشرقية تدق في وقت واحد. حاولت أن أبتلع ريقي ببطيء بحيث أنه لا يلاحظه وانكمشت في مكاني. لا أعرف لماذا تجمدت في مكاني هكذا؟ كنت في حالة من الصدمة وعدم التصديق جعلت تلك الحالة رد فعلى بليد جدا. أستمر في تقدمه حتى وقف أمامي وخلفه على الحائط كانت معلقة أكثر من عشرة سكاكين في عدة أحجام تمنيت لو أن ذراعي تمتد نحو ألف زراع حتى أجذب سكين أدافع به عن نفسي. إلا أن لم أستطع ثم جذبني من ذراعي وقال لي:

– ليش ما عايزة تيجي عالبيت معي. التخت عندي كبير والنبيت يالي معي من نوع غالي متلك

كانت عيني مركزة على السكاكين المعلقة على الحائط. وقدماي لا تثق بالأرض المنزلقة التي نقف عليها، خفت أن اتحرك فأنزلق ويسهل عليه مهاجمتي. بكيت وقلت له:

–أتركني. أنا لم أفعل شيء!

وظللت كالمسوسة أبكي وأردد أتركني أنا لم أفعل شيء وكأني أستعطف قاطع طريق يحاول سرقة معلقاتي. صوتي الباكي الذي يكرر نفس الجملة بطريقة أوتوماتيكية أربكه جدا. ضغط على شفته السفلي وترك ذراعي ثم قال:

– ملكيش في الطيب نصيب، متل ما بيقول عادل أمام

ثم ضحك، ضحكة عالية. وتركني أسقط على الأرض المبتلة الزلقة ولا أدري هل أبتل بناطل من الماء والمنظف الذي يغمر أرضية المطبخ أم آني قد بلت في بناطلي من الخوف. ببطيء شديد قمت بتبديل ملابسي وكنت متوجسة أن أخرج إلى الشارع فأجد ذلك المجنون في انتظاري. حينما دلفت إلى الممر الخلفي من المطعم، أضاءت المصابيح أوتوماتيكيا في الممر. هذا يعنى أن يمكن لأي شخص أن يري من بداخل لأن الباب الزجاجي الكبير يعكس الضوء. لم اتحرك من مكاني وظللت ثابتة حتى انطفأت الأنور. وظللت أجول ببصرى دون أن أتحرك عله بالخارج ينتظر. ظللت قرابة الربع ساعة ولم يمر أحد. بعدها خرجت من المطعم وحللت قفل الدراجة ولم أقو في تلك الليلة على القيادة. كل ما فعلته أن جررت الدراجة وخوفي في أتجاه المنزل. كان الجو بارداً والشوارع خالية إلا من بعض المارة والسيارات المارقة. في العادة الطريق إلى المنزل سيراً على الأقدام يستغرق حوالي عشرون دقيقة، ولكنى وصلت بعد ساعة. كنت منهكة بطريقة لا تصدق. كل شيء كان يؤلمني، جسدي وعقلي وكرامتي.

بعد يومان ذهبت في وقت الظهيرة إلى المطعم، لأني متأكدة أن صاحب المطعم سوف يكون هناك. قابلني بترحاب وعلى وجهه ابتسامة متسائلة! جلت بنظري كي أتحقق من هوية العاملين. لقد كان هناك حوالي ثلاثة عاملين بالإضافة إلى عدد قليل من الزبائن المنهمكين في تناول الطعام والحديث مع زملائهم.! سألني عن سبب الزيارة بوضوح! وجدت نفسي أبكى وأنا أنظر إليه تارة وإلى يداي المتشابكتان على فخذي تارة أخرى. سألني، ما إذا كان كل شيء على ما يرام؟ انفجرت باكية وقولت "حمود" ثم كررت أسمه مرة أخري "حمود" ليلة البارحة وحكيت له ودموعي تساندني كل ما حدِث. أقترب بكرسيه منى أكثر وهو ينظر حوله حتى يتأكد أن لا أحد يستمع إلينا ثم سألني إذا ما كنت متأكدة؟ شعرت بالإهانة، فتوقفت عن البكاء فجأة وقولت له أنا سوف أخبر الشرطة أن لم تأخذ أي قرار ضده. الكاميرات معلقة في كل مكان وتستطيع أن تتأكد بنفسك أنه أنتظر حتى ذهب الجميع ثم دلف إلى المطبخ وخرج بعد ذلك مسرعاٍ. أنا لا أكذب. كنت حادة وتغيرت نبرة صوتي وكأنني تذكرت فجأة أنى لست ضحية. فالرغم من بشاعة ما حدث إلا أني لم أنزوى وأهرب وإنما جئت كي أخبر صاحب المطعم قبل أن أتوجه إلى مركز الشرطة.

أظن أن كان لكلمة "الشرطة" تأثير مدو في أذن المدير. قام من مكانه وقال لي أتبعني. أجرى أتصال تليفونياً وتحدث بكلمات مقتضبة إلى شريكه في المطعم. وقتها كنت لا أفهم الألمانية إلا أنه كان واضحاً من نبرة صوته الاستياء. حينما أنهى مكالمته الهاتفية أخبرني بأنه من غير المعقول التوجه إلى مركز الشرطة دون أن يتخذ المطعم تحقيق ودي مع "حمود" ثم لمح ملامح الانزعاج على وجهي وقال إنه يصدقني، ولكن الحادث غريب جدا ولم يحدث من قبل في المطعم! كما أن "حمود" يعمل لديهم منذ عامان ولم يفتعل أي مشكلات مع زملائه وزميلاته. بغضب قلت له، ولكن هذا ما حدث معي! وكرر مرة أخرى إنه يصدقني، ولكنه يحتاج يوم أو يومان وسوف يعاود الاتصال بي. رغم بشاعة ما حدث إلا أن شعرت بشيء من القوة. أنا لست ضحية!

لقد أخذت خطوات إيجابية بالذهاب إلى مدير المطعم وإن لم يستجيب فمركز الشرطة مفتوح على مدار الساعة. مرت عدة أيام ولم يتصل بى صاحب المطعم كما وعدني. وظننت أنهم لن يتواصلوا معي، ولكنه خيب ظنوني وأتصل. أبلغن المدير أنهم وضعوا خطة عمل بحيث لا ألتق مع عبود أبداً في وردية واحدة. وإن حدث سهواً فمن حقي أن أترك المطعم وساعات الوردية ستكون مدفوعة. بالطبع كنت أتمنى حل أخر. أن يطرد عبود من المطعم مثلاً أو أن تعلق صوره في كل أنحاء المدينة. يا سادة أقروا الخبر "شاب سوري حاول الاعتداء عي طالبة مصرية وتم رفده من العمل وتسلميه للشرطة" هل سمعت يا سيدي عن الشاب الذي طرد من العمل لانه تحرش بطالبة جامعية! وهكذا تخيلت أن يتداول الناس فيما بينهم قصته وصوره ويفضح حتى تحاصره الناس فيعتذر ويكف الرجال التحرش بالنساء الوحيدات أو غير الوحيدات. خيالية أنا!

- ألو، فايزة. هل ما زالت على الخط؟
- نعم، نعم. أنا هنا

طردت أحداث ذلك الحادث المؤسف من ذهني وحاولت أن أكون شجاعة وحازمة في أن واحد. ثم أخبرته بوضعي الحالي وسأكون شاكرة إذ كان يستطيع المساعدة. صاح ضاحكاً وتساءل إذ كنت أتابع خطاه؟ لماذا؟ تساءلت!

قال إنه مسافر إلى كوستاريكا. ثم أخبرني بخطته بقضاء فصل الصيف في كوستاريكا. وبالتال فإن شقته سوف تكون خالية ومن الممكن أن أستخدم الشقة ما دام هو بالخارج ثم علق مازحاً لا حاجة للخوف منه لأن الشقة بها مفتاح واحد فقط!

كنت خائفة من قبول العرض، كيف يمكن أن أقبل هذا العرض وأنا قابلته مرة واحدة عن طريق صديق مشترك. ماذا لو كان يكذب وللشقة أكثر من مفتاح؟ هل سيصدقني أفراد الشرطة حينما أتصل بيهم طلباً للمساعدة؟ أم سيعتقدون أني ساذجة للغاية! شكرته وأخبرته أنى سأعاود الاتصال به. وظللت أفكر في هذا العرض مدة ليست بالقصيرة. تروق لي فكرة السكن في مدينة كولونيا في شقته الفارهة ذات الحوائط الزجاجية المطلة على نهر الراين هذا كله بدون دفع إيجار شهري. هذا شيء خيالي! تشاورت مع بعض الأصدقاء ونصحني الجميع بالاستمتاع بالفرصة. شقة فارهة يسكنها غالبا الأثرياء مجاناً ولثلاث شهور كاملة. فايزة وافقي على العرض!

وافقت! وفعلت كما يفعل المضطر، وحصلت من خالد على المفتاح. وحتى يقضى على ارتيابي طلب منى مقابلته أمام محطة القطار. وجدته ينتظرني وقد أرتدى بدلة رمادية أنيقة لكن لا تصلح لغرضه من زيارة كوستاريكا وبيده شنطة صغيرة وأنا كنت لتوي قادمة من مونستر وبيدي شنطة برتقالية كبيرة بها كل ما أملكه من ملابس وكتب وبهارات. لقد لاحظ ملامح الخوف على وجهي ثم سألنِ باستخفاف إذ ما كنت تخلصت من الحجاب فلما لم أتخلص من عقليتي الشرقية المتخلفة؟ لم أعلق وابتسمت! لقد قرأ ما يدور بخلدي!

نعم، كنت خائفة ويدور بخلدي ألف سيناريو خيالي: إن يحكم قضبته على يدي مثلاً ويسحبنِ معه في تاكسي إلى شقته. أو أنه سوف يحدثن بالإنجليزية ويصرخ أمام الجميع ويقول هيا يا زوجتي اصعدِ إلى القطار، والناس تنظر إلي وتنتظر منى أفعل ما يطلبه زوجي المزيف! هل سيظن الناس أننا هنا لتبادل مفتاح شقته؟ ماذا أفعل هنا؟ أنا أريد منزل والدي في الإسكندرية. إين ابى؟ أنا خائفة. ثم جاء صوته يوقظني من أحلام اليقظة المزعجة:

- لا داع للخوف! القطار سوف يتحرك خلال دقائق.

ولوح بتذكرة القطار أمام وجهي الذي فضح ما الذي أفكر به! أخبرته أن تلك هي المرة الأولى التي أترك فيها مونستر. لقد اعتدت المدينة ولا أعرف أي مدينة سواها في ألمانيا! وليس لدى معارف أو أصدقاء هنا في كولونيا. طمئنِ وقال

- أنتِ لن أبقى هنا إلى الأبد أنها مجرد حل مؤقت حتى أجد غرفة في مونستر ثم أبتسم، كانت ابتسامة مطمئنة ودافئة.

كنت أريد أن أشعر بطمأنينة فابتسمت بدوري. ابتسامة حقيقية وأنا امد يدي لتناول المفتاح، أخذته وتصافحنا. وإذا بالقطار يصدر صفارته إعلاناً منه بدخول المحطة. ما أن استقرت عجلات القطار بدء المسافرون القادمون بالهبوط على الرصيف وتوجه المسافرون المغادرون نحو الأبواب. صافحنِ وأتجه نحو القطار وظللت أتابعه بعيني وهو يدلف من باب القطار، حتى أستقر في مقعده. وما أن رائنِ حتى أشار لي بالانصراف إلا أني هززت رأسي رافضة. كنت أريد أن أتأكد أنه لن يغادر القطار! ولن يتبعنَ إلى شقته.

ظللت أتابع الخريطة التي أقترحها على محرك الخرائط حتى أشار السهم الأحمر بالوصول. رفعت بصري عن الهاتف إلى البناية التي أمامي فوجدت بنايات شاهقة الارتفاع ذات واجهات زجاجية زرقاء وبيضاء تعكس أشعة الشمس وكأنها مرآة كبيرة. مبتسمة أخرجت المفتاح من حقيبتي ودسسته في الباب. ثم دلفت من المدخل إلى المصعد، نظرت إلى صورتي المنعكسة على المرآة وعدلت من هندامي ثم توقف المصعد في الطابق الرابع عشر. لم أكن أصدق أن العمل في الصحافة يمكن أن يجعل المرء ثرى إلى هذا الحد! وما أن فتحت الباب حتى وقعت عيني على غرفة المعيشة ذات المكتبة الهائلة، إن الحائط المواجه للباب عبارة عن عشرات الرفوف الحبلى بالكتب. باللغة العربية. نعم، باللغة العربية! يصعب علينا هنا كثيراً الحصول على كتاب واحد نظراً لندرة المكتبات العربية في ألمانيا، ولكن حسن يملك مكتبة عربية منزلية. كالواحة النضرة في وسط الصحراء. وظل عقلي يردد، كيف أستطاع حسن أن ينقل مكتبة عربية كاملة معه إلى ألمانيا؟ لديه مجموعة من الكتب التي من الممكن أن تقضى أكثر من خمس سنوات حتى تنتهي من قراءتها. صرت أجول ببصري بين روايات نجيب محفوظ ومحمود عباس العقاد وطه حسين ومصطفى لطفي المنفلوطي ومؤلفات إدوارد سعيد ومؤلفات الشاعر جبران خليل جبران، وأشعار الرومي و العديد من الكتب المترجمة من الإنجليزية والفرنسية إلى العربية ومذاكرات فرانس كافاك وكتب عن علم النفس، والفلسفة، وتاريخ الفن، والسياسية حتى الكتب التي تحمل طابع إباحي كانت لديه! كيف استطاع جمع كل تلك الكتب لا أعرف! ولك أن تتخيل أنِ أني مضيت الأسبوع الأول بين أحضان تلك الكتب.

كنت في أيامى الأولى أتوقع عودته حتى أنى في ليلتي الأولي لم أغف بعمق! لكن بعد اليوم الثاني والثالث، تأكدت من عدم عودته. فقررت أن أذهب للتبضع وشراء الخبز والزبد والجبن والحليب وبعض الفاكهة. وما زاد حبي لغرفة المعيشة بسبب الحائط الزجاجي الذي يسمح لأشعة الشمس أن تنشر نورها، لا تحتاج إلى المصابيح. فالشمس تقوم بالمهمة كاملة وحدها. تنشر أشعتها في الغرفة فتشعرك بأنك دافئ، ممتلئ وسعيد. أكثر ما أفتقده من مصر هو الشمس. لذلك كانت تلك الغرفة وأشعتها وحدها قادرة على إسعادي، على تغيير مزاجي، على قدرتي الإنتاجية، على جعل إحساسي بالغربة ينزوي في مكان ما بعيداً في قلبي. ومن قلبي أيضا شكرت خالد.

أحكمت إغلاق الباب ثم سافرت إلى مونستر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع الأصدقاء وحين عدت إلى كولونيا لاحظت أن صندوق البريد به عدة خطابات. فتحت الصندوق وأخرجت الخطابات. بعضها كان دعائي والأخر من شركة التأمين الصحي والثالث كان من محامي. أرسلت إلى خالد صور لأظرف الخطابات عبر تطبيق واتس أب، طلب من أن أقرأ له فحوى الخطابات لأنه لا يفهم الألمانية. فعلت. وأصبحت عادة أن أستلم البريد بنفسِ وأترجم له فحواه، سمح لي حتى بقراءة كل الخطابات من المصرف، من شركة التأمين الصحي، من المستشار الضرائب، من طبيب الأسرة. كنت أقرأ وأترجم له كل شيء. كنت أتسأل لماذا يأمن أحد غيره أن يطلع على حساباته البنكية! ذات يوم أتسلمت في خطاب الرقم السري لحسابه المصرفي على الأنترنت. طلب منى أن أكشط الرقم وأرسله له. يا هول! كنت مرعوبة من الرقم الذي يملكه في حسابه البنكي! ماذا لو كنت غير أمينة؟ ماذا لو حولت بعض الأموال لحسابي الشخصي؟ كنت أخاف من تلك الوساوس الشيطانية التي تمر بذهني كل مرة تقع يدي على خطاباته المصرفية الشخصية. أنه مجنون بكل تأكيد. كان في بعض المرات يطلب منى أن أقوم بعملية تحويل مصرفي من حسابه لحساب أخر. كانت الأموال التي يمتلكها بالنسبة لي ثروة ضخمة. وبفضول نقرت على تاريخ حسابه فوجدت أن الأجور التي يتلقاها من عمله لا تصدق. لكن لا أعلم لماذا يثق بي إلى هذا الحد! لم أقو على سؤاله. كنت كالطفل الذي شاهد أبواه يتعانقان فأغلق الباب على عجل ولا أسأل أحد عن معنى ما رأيته.

مر أكثر من شهر ووجدت أن من الأفضل أن أشرع في البحث عن شقة حتى لا أعتاد على تلك المعيشة الفارهة. وصرت أتابع عملي غير الرسمي كسكرتيرة لخالد والبحث عن شقة. وجدت عبر الأنترنت عدة غرف شاغرة وتمت دعوتي أكثر من مرة إلى مقابلة مع سكان تلك الشقق. حتى وجدت نفسي في النهاية أوقع عقد إيجار غرفة كبيرة في سكن مشترك مع فتاتان، أحدهن تعمل كمشرفة اجتماعية في دار مسنين والأخرى لديها مشروع بحثي للدكتوراه في مجال الكيمياء الحيوية. أخبرت خالد بالخبر السعيد ووعدته أن أعود لشقته من حين لأخر حتى أجمع له البريد. شكرته من قلبي وضببت أغراضي وبنظرة إمتنان طويلة لشقة الفارهة، أغلقت الباب وعدت من حيث جئت إلى مونستر.